ATHLA : Journal of Arabic Teaching, Linguistic And Literature
Vol. 2 No. 2, Desember 2021, 165-179
P-ISSN: 2774-6461; E-ISSN: 2774-6488
DOI: https://doi.org/10.22515/athla.v2i2.4179

The Development of Balaghah Studies During The Dynamic of Studies (A Historical Glimpse into The Theory of Arabic Literature)/ منهجيّة و الدّراسات البلاغيّة في مرحلة الازدهار (لمحة تاريخيّة في نظرية الأدب العربيّ)

Atiq Farohidy
IAIN Surakarta
atiq.farohidy@iain-surakarta.ac.id

ABSTRACT
The purpose of this research is to determine the historical process of Balaghah studies which is taking place at the stage of the development of scientific dynamics and the study of Balaghah studies. This research is qualitative research and it use literature review method in the process of collecting data. The result of this study indicates that at the end of the second century of Hijriyyah, the Mufassirs had an enormous contribution to the growth and practice of developing Balaghah studies. In this century, Balaghah studies have revealed to some of the knowledge of Tafsir and it has contributed adequately to understand and to revealthe verses of the Qur'an (I'jazul Qur'an). Then Balaghah studies reached the peak of the glory in the fourth century of Hijriyyah, specifically during the time of Abu Bakr Abdul Qahir al-Jurjani (W.471 H) with his construction theory text (Nazhariyah al-Nazhm) which was find in Dalailul I'jaz and at the same time, it became the basis for the formation of Ma'ani studies. He formulated the studies in detail about Bayan studies in his book "Asrar al-Balaghah". Furthermore, Al-Zamakhsyari (W.538 H) through his book "Tafsir al-Kasysyaf" has also a significant contribution to the progress of Balaghah studies.

Key words: *The History of Balaghah,Arabic Literrature, Scientific Dynamics Stage*

ABSTRAK
Penelitian ini bertujuan untuk mengetahui proses historis ilmu Balaghah yang berlangsung pada tahap perkembangan dinamisasi keilmuan dan pengkajian Balaghah. Penelitian ini merupakan sebuah studi penelitian kualitatif yang menggunakan metode kajian literature dalam proses pengumpulan sumber data. Adapun hasil penelitian ini menunjukkan bahwa pada akhir Abad kedua hijriyyah, para Mufassir memiliki kontribusi yang cukup besar terhadap pertumbuhan dan perkembangan ilmu Balaghah. Pada abad ini kajian-kajian Balaghah telah mewarnai beberapa kitab ilmu Tafsir dan cukup berkontribusi dalam memahami dan menyingkap ayat-ayat al-Qur'an (*I'jazul Qur'an*). Selanjutnya Balaghah mencapai puncak kejayaannya pada abad keempat hijriyyah, yaitu pada masa Abu Bakar Abdul Qahir al-Jurjani (W.471 H) dengan teori konstruksiteksnya (*Nazhariyah al-Nazhm*) yang terdapat pada Dalailul I'jaz dan sekaligus menjadi dasar terbentuknya ilmu Ma'ani. Beliau merumuskan secara detail kajian-kajian tentang ilmu Bayan didalam bukunya "Asrar al-Balaghah". Selain itu, al-Zamakhsyari (W.538 H) melalui bukunya "*Tafsir al-Kasysyaf*" juga memiliki kontribusi yang cukup signifikan bagi kemajuan kajian Balaghah.

Kata Kunci: Sejarah Balaghah, Sastra Arab, Tahap Dinamisasi Keilmuan

المقدمة

وجد الباحث أنّ الدراسة البلاغيّة قد مرّت بفترة طويلة من الزمان وكانت تقعفي حالة من الثّبات والاستقرار قبل وصولها إلى عصرنا الحاضر. وأنّها نشأت واشتهر بها العرب منذ عصر الجاهليّة . ولا شكّ أنّ علم البلاغة ملائم لعلم الفصاحة وعلم البيان وهو يدلّ على مرتبة رفيعة من البلاغة والأدب. وعُرف علم البلاغة منذعصر الجاهليّة واشتهر شعراءهم وأدباءهم حتّي بلغ العرب في مرتبة شريفة من فنون البلاغة والبيان.

وإذا انتقلنا إلى عصر صدر الإسلام لم نجد اختلافا كبيراً بين بلاغة هذا العصر وذاك، فكان العرب في صدرِ الاسلام يجرّون في أساليبهم على الطبع و تارة وعلى الدّربة والتّثقيف تارة أخرى فيفون اللّفظ والمعنى حقّهما، و يصلون الى الغرض في إيجاز أو إطناب أو مساواة و حسب ما يقتضيه المقام المطلوب. وإنّ ملامحه في البداية كانت بسيطة و في نفس الوقت وقت الانتماء إلى العلوم الأخرى و في النهاية تبلورت هذه السمات، فأصبحت معالمه أكثر وضوحًا و تطورت هي إلى علم مستقل له كتاباته الخاصة التي تتعامل مع مشاكله المتخصّة. وقد أدى ذلك إلى تداخلهم إلى درجة اختلطت فيها و أحيانًا نجد في إحداها بعض الأعمال التي تدخل في ملامح المرحلة التي سبقتها .

و نزل القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍ كريم و في حين توجد فصاحةَ العربِ و برهان على بلاغتِهم، فكان القرآن متحدّياً هذه الفصاحة الرّفيعة و تلك البلاغة التّامة و طلع بذلك منذ مطلع النّصف الثّاني من القرن الهجريّ الأول تقريبًا فيلحظ الدّارس إتّساع دائرة الأحكام الجماليّة على روائع الشّعر العربيّ حيث كانت تقام ما يشبه المنتديات أو المجالس التي تضمّ عددًا من جهودى الشّعري والبيان. (SyauqiDhayf, 1965)

وكذلك أنّ مباحث لعلوم البلاغة تنموا بيد عبد القاهر الجرجانى حيث استطاع أن يضع علمى المعاني والبيان وضعا مبينا، فإذا هو يستكشف لأول مرة لهذا العلم. ومضى يجمع ملاحظات سابقيه في علم البيان وأخضعها لضرب من التّحليل العقلي والنّفسي. وحيث كان في ذلك الوقت استطاع الجرجانىّ أن يضع أيضا علمي المعاني والبيان. وهذه الرسالة ستبحث عن تطور منهجيّة و الدّراسات البلاغيّة في مرحلة الازدهار.

طريقة البحث

هـذا البحث هو " بحث وصفيّ تاريخيّ ". وكما هو المعروف بأنّ بحث تاريخ مقارن هو البحث الذي يقارن العوامل من ظاهرة في شبر من الوقت و المكان المقرّر. تعتبر هذه الدّراسة دراسة وصفيّة تاريخيّة فمصادر البيانات التي اختاره الباحث فليس من الأشخاص. فهذا البحث هو الجمع عدّة من الكتب والمراجع الأخرى المتعلّقة بقصد البحث وأغراضه (Wasriah, 2009) .وأمّا تحليل البيانات المستعملة في هذا البحث فهو تحليل البيانات النوعيّة. وتحليل البيانات النوعيّة هي طريقة لتحليل البيانات التي ليست رقمًا (Lexy Moleong, 2009)

فتعيّن مصادر البيانات لهذا البحث من مطالعة الكتب والمراجع المتعلّقة بالبحث ومع تحليلها بطريقة بحث تاريخ مقارنة. هذا البحث يتعلّق بتطورمنهجيّة والدّراسات البلاغيّة في مرحلة الازدهار والنوع في البحث هو دراسة وصفيّة تاريخيّة.

النتيجة و المناقشة

لمحة عن نشأة البلاغة في العصر الإسلاميّ

أخبر ضيف أنّ (Syauqi Dhayf, 1965) الشّعراء في العصر الجاهليّ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصّور، و كانوا يسوقون أحيانا بملاحظاتبيانية في بلاغتنا العربية ومن يتصفّح أشعارهم يجدها تزخر بالتّشبيهات والاستعارات و في حين تتناثر فيها أنواعا من المقابلات والجناسات، ممّا يشير دلالة واضحة وأنّهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام وحسن الفنّ في معارضة مبينة.

و لمّا حان فجر الإسلام ظهرت عوامل متشاملة فأدّت إلى الاعتناء بصياغة الكلام و إظهار المعاني والتّراكب بصورتهما رائعة وكان أهمّ هذه العوامل فهي نزول القرآن الكريم على سيدنا محمّد صلّى الله عليه و سلّم الذي بدأ بتلاوة آياته على مسامع الصّحابة الكرام الذين بدأوا أخذوا بحفظه في صدور المؤمنين و كان لهذه الآيات أثر واضح في نفوسهم و دقّة مشاعرهم و تسامي أذواقهم وكانوا قد انبهروا ببلاغة القرآن الكريم ووجدوا عاجزين لأنفسهم وبالإتباع لمثله. فأسرعوا يتعرّفون على جماليات خصائصه و مظاهر قواعده. أمّا الكفار من قريش فإنهم أنكروه و ادّعوا تارةً أنّه شعر و تارةً أخرى بأنّه سحر

وغير أنه وجد في قلوبهم ووجد لأحاديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم التي كانت تتردّد على مسامع النّاس دور عظيم في تحسين الكلام وجماليّته ثم اتّبعه في أيدي الخلفاء الرّاشدين بجودة الخطابة ولهم ملاحظات في نقد تحسين الكلام وبلاغته وغير ذلك الخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار ومن أظهر الأمور التي أدّت إلى الاهتمام بتحسين الكلام مع فصاحته.

تأثّر القرآن في نشأة البلاغة و تطويرها تأثّراً عظيماً. فقد أطلع العلماء على دراسته و بيان أسرار إعجازه و جعلوه درسا من دروس البلاغة فاتّخذوا آياته شواهد على مطالعة أبوابه واعتبروها إمتثالاً يحتذى في جمال النّظم ودقّة التّركيب. واتّضح ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة.

أمّا القرآن تتلى آياته ليلا ونهارا. أمّا الرّسول فكان حديثه يذيع على كلّ لسان و كانت خطبه تملأ أحاسيس القلوب(Abi Utsman ‘Amru, 1998). ثمّ إتّضح عبد القادر حسين بأنّ معرفة ألفاظ القرآن و فهم معانيه و إدراك أغراضه وأبعاده هو الهدف الذي يرمى إليه المفسّر ولا يمكنه أن يقف على شيء من ذلك إلّا إذا كان ذا قدم راسخة في علوم اللّغة بصفة عامّة وعلوم البلاغة بصفة خاصّة .(Abd. al-Qadir Husain, 2001)

وكان النّبي عليه الصلوات والسلام أفصح العرب لسانًا. و في أحاديث الرّسول ما يدلّ على أنّه كان يعنى أشدّ العناية بإختيار لفظه و قال : ((لا يقولنّ أحدكم خبثت نفس، و لكن ليقل: لقست نفسي)) كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه. وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خطباء جذباء، و كانوا يستضيئون في خطابتهم بخطابة الرّسول الكريم وآيات الذكر الحكيم. وربّما كان ممّا يدلّ على شيوع دقّة الحسّ حينئذ ما يروى عن أبي بكر من أنّه عرض لرجل معه ثوب، فقال له : أتبيع الثّوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله(Abi Utsman ‘Amru, 1998).

ثمّ بدأت هذه المرحلة في أوائل العصر العباسيّ حيث أنّ البلاغة العربيّة تتطور من تسجيل الملاحظات البلاغيّة إلى وضع القواعد البلاغيّة المقررة. وكانوا أنشط المساهم ينفي وضع قواعد البلاغة وبسط مباحثها المنهجيّة، واعتبروا ملاحظات اللّغويّين ملاحظات ظاهريّة لاتتعمّق بالمعاني ولا تظهر

عما وراء اللّفظ من دلالة، فوجهوا دراستهم لبيان الأسلوب. و ذكر صاحب كتاب " نظرية النّظم " في صفحة ١١٨ أنّ أول من ألّف كتابا في البلاغة هو بشر بن المعتمر (٢٠٥هـ) و هو يريد بكتابه أني رشد النّاسبه إلى القول البليغ و خصائصه. و وافقه الدّكتور عبد المنعم خفاجي على السّبقل ابن المعتمر في وضع كتاب في البلاغة حيث نقل قولا لجاحظ من كتاب" البيان و التّبيين"(Muh. Abd. al-Mun'im, 1983).

ظهور الدّراسة البلاغيّة في عصر بني أميّة

وإذا لاحظنا إلى عصر بني أميّة لوجدنا ألوانا فيفنون الخطابة من سياسة و تزدهر فيه إزدهارا كبيرا، و في كل نوع من هذه الأنواع في شتهره غير خطيب، أمّا في مجال السياسة فيشتهر من رأساء و زعماء بني أميّة كزياد والحجاج. مثل ما يقول زياد: ما سمعت متكلّما على منبر قطّ تكلّم فأحسن إلّا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلاّ زيادا فإنّه كلّما أكثر كان أطيب كلاما (Abi Utsman 'Amru,1998).

أما الحجّاج مثل قوله : ((ربّما سمع الحجّاج يخطب و يذكر ما صنع به أهل العراق و ما صنع بهم، فيقع في نفسي أنّهم يضنونه و أنّه صادق لبيانه و حسن تخلّصه بالحجج)). ومن خطباء الشيعة زيد ين الحسين بن علي وكان لسنا جدلا يجذب النّاس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه. و من خطباء المحافل سحبان وائل وقد خطب بين يدي معاوية بخطبة رائعة وسمت من حسنها باسم الشّوهاء ومثله صحار العبدي الذي راع معاويه في خطابته، فسأله: ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز، فقال له معاويه : وما الإيجاز ؟ قال صحار: أن يجيب فلا تبطئ و تقول فلا تخطئ (Abi Utsman 'Amru, 1998).

أمّا الخطباء الوعظ فإنهم بلغوا الغاية من روعة البيان مثل غيلان الدّمشقي والحسن البصريّ و واصل بن عطاء ويقول الجاحظ إنّ أدباء العصر العباسيّ كانوا يتحفظون كلام الحسن و غيلان حتّى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانيّة. و ممّا اتضحه من كلام الوعظ كقوله : "النّاس موكّلون بتفضيل جودة الإبتلاء وبمدح صاحبه وأنا موكّل بتفضيل صاحب القطع وبمدح صاحبه، وحظ جودة القافية

وإن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظّ سائر البيت". و يسوق الجاحظ حديثا ظريفا بين أبي الأسود الدّؤلي و غلام كان يتقرع في أقواله و قد تلومه أبو الأسود تلوا عنيفا لاستخدمه بألفاظ متقدّة بالغرابة.

وزيادة من ذلك وجدنا أنّ في عصر بني أميّة انتشرت الملاحظات النّقدية و كثرة مما عملت فيها عديد من الباعثة وأسباب كثيرة كحضور العرب وسكانهم في المدن والأمصار وفي ارتقاء مستوي العلوم ورقيّها ثم أدى إلى ترقية كفاءة الفكرة للأمة الإسلاميّة. وبدأوا بالمجادلة في جميع شؤونهم السّياسيّة والعقديّة المتنوعة. وفي الواقع أن ينمو النّظر في بلاغة الكلام وأنّ تكثر الملاحظات البيانيّة المتّصلة بالكلام و ليس محدودا في مجال الخطابة والخطباء بل في ميادين الشّعراء وكان أكثر تنافسًا وفعالاً لتعلّق الشّعراء بالمديح.

وفي هذا العصر ترعرعت فرقة النّقد في دواوين الخلفاء والولاة أو في أماكن الأدبية كسوق المربد ببصرة وسوق الكناسة بكوفة. الشّعراءفي تلك الأسواق يجتمعون فيها لينشدوا أمام المجتمعبأحسن الشّعر بين يديهم. و اجتمع من بينهم الكميت و نصيب وصاحب الرّمة، فأنشدهما الكميت ويقول: "أم هل ظعائن بالعلياء نافعة # و إن تكامل فيها الأنس و الشّنب". فعقد نصيب واحدة ويقول له الكميت : "ماذا تحصى؟" فأجاب : "خطأك باعدت بين الأنس والشّنب. فنصيب ينقد الكميت لأنّه جمع بين أمرين لا يجتمعان في الخارج ولا في الذّهن وهو بما يعرف بمراعاة النّظير".

ثمّ نشأ فنّ الرّسالة و النّثر في عصر العباس الأول. تميّزت وقت الفترة الأولى لهذا العصر بوجود الخلافة ومجد الدولة. وقررت قواعد الدّولة لأبي جعفر المنصور واستمر نفوذها في أيّام المهدي وتألّقت حضارتها وعظمت هيبتها أيّام هارون الرّشيد والمأمون. ثم توالي المعتصم في عهده الانتصارات العسكرية وامتد بعد ذلك إلى أيدي الواثق والمتوكّل. في رعاية هؤلاء الخلفاء غلب جماعة من الفارسي وبقي الرّأي الأعلى والكلمة بفترة من الزمان في عهد خليفة العباسيّ، وربّما خطر في صدر الخليفة خنيفة من معاونيه فبطش بهم.كما فعله السّفاح بأبي مسلم الخرسانيّ والرّشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل(al-Ashthakhiri,TT.).

ثمّ تحسن فنّ النّثر في أدب الرسائل أول مرّة في نهايات العصر الأمويّ وبدايات العصر العباسيّ، فكتب ابن موضوعا معينا. فلعلّ المقفع رسائله على غرار رسائل عبد الحميد الكاتب وهي مقالت طوال تتناول أشهرها "رسالة الصحابة" أي في آداب الصّحبة والسّلوك ومصاحبة السّلطان والوالة والحكام والقادة والعوان (Baca ArtikelIlmiah "Tathawwur an-Natsr al-Arabi", www.diwanalarab.com., diaksestgl 5 Maret 2021).

ومرّ للرّعيّة والجند من جميع الحقوق فيجب إعطاءها والأداء بجميع واجباتها ويجب إقامها وهي بقريب من منزلة الخطاب المفتوح في أيدي الخليفة. وفي مجال السياسيّة والإداريّة تهتمّ شؤون الحكم و السياسة الدولية. وكان موقع فنّ الرّسالة يختلف تماما عن فنّ الخطابة. يعرف اختلافه من حيث الحجم وللخطبة حدّ من الزّمان وأحيانا قد يكون بطولا لرّسالة ولها نمطان من النّثر الأدبيّ.

ونجد في التاريخ أنّ الكتابة انتسجت على أنواع من الخطابة. إنّه فيسبيل الخطباء فمشى الكتاب حتّى أصدرت الكتابة إلى نهاية الوريث الشّرعيّ للخطابة. وما اتضحه ابن المقفعب خطوة أخرى في مجال النّثر الأدبيّ لوليد و ذلك يحدث عندما أكمل كتابيه الصّغيرين "الدب الصغير" و"الدب الكبير" المشهورين برسالتين متشابهتين.

وبعد شرح ماحدث بظهور الدّراسة البلاغيّة في عصر بني أميّة فلحص الكاتب بأنّه يوجد الملاحظة البيانيّة في عصرين الجاهليّة والإسلاميّة و لكن لم يصل علماء البلاغة في جمع قواعد علوم البلاغة الثلاثة كما وجدناه في عصرنا الحديث.

ازدهار الدّراسات البلاغيّة

إن نشأ الدراسة البلاغيّة تبدأ بعد نزول القران الكريم. ولاشك أنّ للقرآن تأثيراً كبيراً في تنمية علوم البلاغة وتطويرها. وأطلع العلماء في دراسته وبيان أسرار إعجازه. وجدنا في عصر بني أمية كثيرا من الملاحظات النّقديّة ووجدنا استقرارهم في المدن حتى الأمصار وتنشأ فنون الرّسائل والنّثر في عصر العباس الأول.

وبعد ئذ وضع عبد القاهر نظرتي المعاني والبيان ثمّ أصدر بعدها التطبيقات للزّمخشري التي كتب الكشاف مع إضافاته في المعاني والبيان. ثم تنشأ علم البلاغة في فترة من الأجيال، متسلسلة إلى أيامنا الحاضر. فلخّص الباحث أنّ تطور منهجيّة و الدّراسات البلاغيّة في مرحلة الازدهار تنقسم في أربعة مراحل، وهي :

(١) وضع عبد القاهر نظرية المعاني

إنّ للنّظريات ذات منزلة مهمة في دراسة علم البلاغة، معناه هو التّجميع ومعنى النّظم في تعريف البلاغيين هو تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي مضمون معانيها ويناسبه من معاني علم النّحو والموضوعة في أماكنها على الوضع الّذي يدركه الأفكار. ولِد عبد القاهر في جرجان و إسمه الكامل هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد الجرجانيّ (٤٠٠ – ٤٧١ هـ) أي عام ١٠٠٩– ١٠٧٨ م . وأنّه كان فقيهًا شافعيًا ومتكلّمًا أشعريًا (Syauqi Dhayf،1965).

ولعبد القاهر منزلة عظيمة في تاريخ البلاغة ويستطيع وضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعا جيدا. النّظرية الأولى تخصّ بيانها ف كتابه "دلائل الإعجاز". وأمّا النظرية الثّانية تخصّ بها وبمباحثها في كتابه "أسرار البلاغة". وينبغى أن نعرف من بداية الأمر أنّ البلاغة تنقسم إلى العلوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع. وأنّه لم تكن مستقرّة إلى عصر عبد القاهر. وكان يرى أنّ علوم البلاغة علم واحد، تتفرع مباحثه وسمّي علم المعاني باسم "النّظم" وهو اصطلاح كان يدل في مجتمع الأشاعرة. وعرف الجاحظ بأول من وضع هذا الاصطلاح وشرح به الإعجاز القرآنيّ (Syauqi Dhayf, 1965).

ووقت ئذ أطبق الجرجاني قواعد النّظم على النّصوص فتحصل علم المعني في استخدام النّظريات ومثاله ما يحتوي باب التّقديم والتّأخير في علم المعاني وهو يشمل نوعين : (الأول) : تقديم على نيّة التّأخير كخبر المبتدأ في قولنا : "منطلق زيد"، فالمعلوم أنّ المنطلق لم تقع بالتّقديم من كونها خبراللمبتدأ و مرفوعة. و (الثّاني) : تقديم لا على نيّة التّأخير و هو أن تنقل الشّيء من أنواع الأحكام و تجعله بابا غير بابه و إعرابا ليسبإعرابه و ذلك أن تحضر إلى اسمين يحتوي كلّا منهما و يكون مبتدأ و الآخر هو الخبر . فتتقدّم مرة هذا على شئ آخر و أخرى على هذه لعلة بيانية و لفضل منه . و من الأمثلة

لذلك هو "الاستفهام بالهمزة" . فإنّه موقع الكلام إذ قلنا: "أفعلت؟" فبدأت بالفعل كان الشّك في الفعل لنفسه و كان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . أمّا إذا قلنا :"أأنت فعلت؟ "فبدأت بالاسم كان الشّك من الفاعل . (AudahSulaiman Said, TT) .

إضافة ممّا اتضحه الكاتب، أنّ عبد القاهر هو أولَّ علماء النّحو وسما به ما يفوق الخلافات والتّأويلات في أحوال البناء و كذالك الإعراب .ثم أخضع علم النّحو بتفكير النّظم مع قواعده المشهورة. ويقول: "معلوم أنّ ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض". وقال له: "و اعلم أنّ ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو". و يقرّر عبد القاهر بمعاني النّحو في القرآن الكريم قد وصلت إلى درجة من الظهور والوضوح والانكشاف لم يبلغيا أيّ نصٍّ آخر، و هو يعرف بأمثلة من الشّعر. وكان يوازن بينها وبين النّظم القرآنية. و في الواقع يحصل إلى سرِّ الإعجاز القرآنيّ المتمثّل بنظمه وكيفية تأليفه. والألفاظ لعبد القاهر تنال منزلة شريفة في علم المعاني مرتبة في النفوس، وترتّب المعاني في أذهانك ثمّ تبدوا عمى في ترتيب الأساليب في نطقنا، لأنّه لا يُتصور أن نعرف الألفاظ موضعا ولانعرف معانيه ولا أن نتوخى في الألفاظ حيث يكون ألفاظا بترتيبه ونظمه.(Abdul Qahir Al-Jurjani, TT) .

(٢) وضع عبد القاهر نظرية البيان

مما وضع عبد القاهر من قواعد المعاني ووضع كذلك قواعد البيان لأول مرّة في تاريخ البلاغة. وإنّ كل المباحث التي بحثها وسبقه بها البلاغيّون بالبحث، ولكن لم يحرّروها ولم يناقشوا دقائقها مما بحثها وقررها عبد القاهر في تأليفه "أسرار البلاغة". و قد يميّز في الأقسام و الفروع و يحلّل أمثالها تحليلا بارعا حوالى أربعمائة من الصحف . (SyauqiDhayf, 1965).

فالمؤكّد حين يخصّ لهذا الكتاب بمباحث علم البيان لم تكن بتفكير في وضع بهذا الاسم واستذكارا بما نقدّم .ويسمىّ مباحثا في علم المعاني باسم علم البيان تارة وعلم الفصاحة تارة ثانية. ولايكاد يتقدّم لهذا الكتاب حتّى نجد إلى أنّ الاستعارة جزءا من علم البديع. و يحسّ لكلّ منهم ما يسمى بعده باسم علم البديع و المعاني والبيان . إنّما يكون عرضا لعلم واحد هو علم البلاغة و

خصائص التّعبير. ثميقرّن لفظ البلاغة إلى ألفاظالأسرار و يجعلهما عنوانا لهذا الكتاب حيث كتب في الدّلائل و يقرنه الفصاحة إلى البلاغة و يتضمنها ضمنا واحدا. و يجدجميع ما يشير إلى أن يكون متمثّلا باستقلال علم البيان بالصّورة التي تستقلّ بها الزّمخشر ومن جاء بعده. ربّما يكون دافعا لهم إلى أنّهم وجدوا في مقدّمة الكتاب يسميه بعلم البيان. ويناسب بالآية القرآنيّة " الرحمن # علّم القرآن # خلق الإنسان # علّمه البيان".

ثمّ مرّ بعد ئذ قولا بأنّ خصائص علم البيان لا تردّ إليه اللّفظ نفسه وإنّما تراد إلى النّظم وترتيب الكلام حسب ترتيبه في المعاني. معناه استهلال لمباحثه في الكتاب وسينال بيان الفروق بيانا دقيقا في التّركيب ولا يوسع بهذه الفروق على نحو بما بتّسع بها في الدّلائل ويحصر إليها في الصّور البيانيّة. ثمّ في نوع من أنواع علم البديع وما داميشيره وسابقوا إلى جمالها حسّيّا.

ثمّ دلّت المباحث في الصّور البيانيّة جميعا ولهذا الكتاب وما بعده من الدّلائل، لما يجرى في كلامه من ضبط وإحكام ودقّة واستيعاب .و لما ينتشر من الآراء ولا يعاهد بها في الدّلائل. كأنّما تكامل أدائه في التصوير الدقائق عن التّراكب البلاغيّة وتأثّرت في النّفوس . (Abdul Qahir Al-Jurjani, 2001).

يعتبر عبد القاهر كتاب "أسرار البلاغة" من أغلب الباحثين ويوضع نظرية لعلم النّظم وملخّصها: بأنّ للبلاغة جمالا ولا يقع في الألفاظ فحسب ولا في المعاني وحده وإنّما في قواعد أساليب الكلام وبناء الجمل ومواقع الإيجاز والإطناب وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. كما قوله فإنّنا لسنان ستحسن التجانُس في لفظين إذ يكون واقعا بمعانيه ما ويدركه العقول. ويتمثل بذلك في قول أبي تمام : ذَهَبَت بِمُذْهَبَهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوتْ# فِيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أم مُذْهَبُ.

وقد يوجد كلاما رائعًا عند أرآء المتأخرين أي علماء البلاغة في عصرنا الحاضر ويحمل أصحابَه فروطاً ويشغفه بأمورٍ التي تراجع إلى محاسن علم البديع و ألاينساه حيث يعبر ويفهمه الناس ويقول ليشرح به و يُخيَّل عندما اجتمع فيتقسيم البديع في الأبيات المختلفة. وأنْ يُواقعوا السّامعين لنيله.

و حسب ما عرف بذكره فإنّ هؤلاء الذين يعرفون جواهر الكلام أنهم ليسوا عارجين لمثل هذه الفنون إلّا بعد سلامة المعاني وبثقته وصحَّته وإلّا حيثُ يأمَنون جنايةً منه عليه وانتقاصا له وتعويقا ماسواه، ولاحظ إلى جميع الخطبة للجاحظ عندما كتب أوائل كتبه. والخُطبُ بشأنها يستند بقواعد الوزن والسجع. فإنّها تُرْوى وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار ومحلُّها محلُّ النّسيب والتّشبيب من الأشعار الذين كانوا لا يُقصدبه إلاّ الإجتماع بصنعة .(Abdul Qahir Al-Jurjani, 2001) .

الوقف بالسّجع له موقف من الجناس و يحتاج إلى عدم التواسع في استعماله حتّى لا يؤوله إلى ويعكسه بغرض كلام. وأصبحت المعاني لفظا ويصبح اللفظ حليا خليصا يختلف المعنى. ويرغب بأسلوب الجاحظ ويعمد إلى السّجع خشية أن يجور على معانيه. ويقال أن الكاتب يجب ألا يجلبه إلى كتابه إلّا أن يأتي عفوا ولا تعمّد في طلبه حتّى لا يقع الخلل في كلامه. و يتزيّد بما لا يفيده و يماثله بالحشو. إنّما يكره لأنّه خلا من شئ نافع و مهما مفيد و لم يكن حاشيا و لا لغوا من الكلام (Syauqi Dhayf, 1965).

وفي نظرآخر، أنّ الغاية التي تسعى عبد القاهر بنظريته هي التحصيل بتعبيرة لغويّة إلى درجة شريفة، ليظهر التّعبير عن المعاني متساويا بحقيقة راسخة في ذهن المستمع و القارء أو المتكلّم بلا زيادة ولا نقصان. و المباحث لدراسة عبد القاهر عن نظرية النّظم فيرى أنّه يجعل النّظم أسسا لجميع النّقد ومرجعا لمعياره في مجال العناصر الفنونية الأدبيّة. ويجعله في ذلك من النّظم والقوانين التي ترشد تذويق الأدب و إلى الإنكشاف بمرتبة من الكلام. و قد جاهد بكل الجهد لاستقرار الفكرة إلى أن يوضح بنظريته كمرجع لزمرة النّقاد والباحثين(Abdul Qahir Al-Jurjani, TT) .

(٣) تطبيقات الزمخشري في الكشاف(٤٦٧- ٥٣٨ هـ)

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري. هو ملقوب بالإمام الكبير في التفسير والحديث والقواعد وعلم البيان وملقوب أيضا "بجار الله الزمخشري" . سمي به لأنّه كان مسافرا إلى المكة وجاور بها زماناً، فأصبح بقول المشهور : "جار الله لذلك". ولهذا الاسم ملازماً له. ولد يوم الأربعاء من رجب بسنة سبع وستين وأربعمائة في زمخشر الموافق ١٠٧٤ ميلادية و توفّي

بسنة ٥٣٨ هجرية الموافق ١١٤٣ ميلادية. وعرف الناس بصاحب الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

ترعرع الزمخشري ويعيش معظم حياته في منطقة آسيا الوسطى ولكنّه يمكث في المكّة المكرّمة زماناً فيعرفه الناس"بجار الله". كما عرفه كثير من العلماء في المشرق الآسيويّ. يبدأ حياته في مواطنه المحليّ ثمّ ينتقل إلى المنطقة العربية ثمّ يعود إلى بلاده. وكتاب الكشّاف أو التّفسير فإنّه تأثّر في تفسيره بعقيدة الاعتزاليّة فصار بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهده مذهبه.

وللزمخشري مقدمة بكتاب أساسا لبلاغة حيث يشرح لما أنزله الله تعالى من القرآن مختصاً بالكتب السّموية بالصفة البلاغية. ويكون موافقا بعلماء الأعلام والأنصار للدين الإسلام. و أن تكون مطامحا بنظريته ومطارح الفكرته إذ الجهة التي وصلت إلى بيان علماء البلاغية ويعثرون بمناظم البلغاء. ومتعاورة في الأقوال والألفاظ. ومغايرة بينما ينتقوا بها و ينتخلوا ما ينتفوا عنه فلم يتقبّلوا وما يستركوا به ويستترلوا.

ونال الزمخشري شهرة مدوية في العالم الإسلاميّ بداية من العصر الذي يعيش فيه بموقع "الكشاف" والذي يستطيع أن يقادم فيه تصوير رائع لتفسير القرآن الكريم. ويعين بذوق أدبيّ مذهش يزين الجمال البلاغيّ بقياسه الدقيق وما يحتوي من جمال وجليل. مع هذه الجهة ليست له قرينا سابقا و لا يتناسبب تاريخ التّفسير، و بذل الأوائل و الأواخر إلى أنيرى أهل السّنة يتلونه و بتفسيره. بالرّغم من اعتزاله ومخالفتهم له في عقيدتهم الاعتزالية (Syauqi Dhayf, 1965).

(٤) إضافات الزّمخشري في المعاني والبيان

ولاحظنا أن الزّمخشرى يطابق في تفسيره بعض الآراء لعبد القاهر بتطبيق بديع. لقد يوصل بهذا التّطبيق بكثير منه والآراء التي تدلّ على التعمّق به في صورة الدّلالة البلاغيّة وإجادته بخواص العبارة. في بدايتها فصول التّقديم مع التّأخير ما اندراج بالحديث عن المسند إليه مع التعريف منه وتنكيره. ويترك الزّمخشرى صورة من صور المسند إليه ولا يعتصره إلا بدلالة بلاغيّة (Syauqi Dhayf, 1965).

ويظهر الزّمخشري في التفصيل لمعانى المسند إليه المختلفة في مضمون تعريفه جميعا. وتكون ضميرا خطابا. وما يريد التعميم كقول تعالى في الآية : "و لو تري إذ المجرمون ناكسو رءوسهم". فيقول يجوز أن يخاطب به كل نفر وكما تقال فلان لئيم إن أكرمته أهانك و إن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطبا بعينه. ثم زاد الزّمخشرى في نظرية علم البيان في الأخري كالإضافة الجديدة. واستكمال الصور للكناية والاستعارة ثم المجاز العقليّ وأثبت بوضع قواعدها الدقيقة. بحيث يمكن أن يقول إنّ قواعد علم البيان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعاني (Syauqi Dhayf, 1965).

ذكر سابقا بأنّ الأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تكون متردّدا باستماع النّاس له أثر كبير في صناعة الكلام وجماليّته. ويتّصف خلفاء الرّاشدين بجمال الخطابات وكانت لديهم ملاحظة في نقود صناعة الكلام وبلاغته. وأضف إلى الإختلاف بين المهاجرين والأنصار على الانخلافة والنّزاع بين علي ومعاوية من أظهر الأمور التي تؤدّ إلى النظر ببلاغة الكلام وفصاحته.

و لمّا جاء الأمويّون زادت الملاحظات البلاغيّة بسبب تطور الخطابة وتنوع أساليبها، كما ساهم انتقال العرب للإقامة في المدن إلى وجود أسواق أدبيّة، كسوق عكاظ في الجاهليّة. و في العصر العباسيّ وبدأ تدوين علم الدّراسات البلاغيّة التي قامت على أسس الملاحظات النقديّة. وكان أول من بدأ بالتأليف أبو عبيدة بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن"، ثمّ سار على خلفه علماء البلاغة الآخرين في تأليف كتب في صور الاستعارة والتّشبيه والكناية. أمّا علم المعاني فقد كتب في مسائله مؤلّفون عدّة وكان أبرزهم : (الأول) سيبويه والجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" و (الثّاني) أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتيْن" و (الثّالث) عبد القادر الجرجاني الذي كان له كتابان و هما: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة". أمّا علم البديع فكان أول من كتب فيه عبدالله بن المعتزّ ثم قدامة بن جعفر، و يليهما ابن رشيق في كتابه "العمدة"(Muhammad Ali al-Malik, TT).

ثمّ استمرّ علم البلاغة على يديّ أبي يعقوب السّكاكي و مدرسته. ولم يجد أي تغيير عليه منذ بداية القرن السّابع الهجريّ. و قد شمل هذا الاستقرار العلوم الثّلاثة الّتي كانت مترابطة به و هي: علم البيان و البديع و المعانيّ. وأيضاً الفنون الأخرى التي تفرّعت عن هذه العلوم الثلاثة. إضافة إلى مناهج

البحث البلاغيّ والأساليب البلاغيّة التي كانت تنهج النهج نفسه الذي أسّسه السّكاكيّ و اتبعه تلاميذه. و من الجدير بالذّكر أنّ التطور الوحيد الذي طرأ على علوم البلاغة في تلك المرحلة هو استحداث فنون أخرى من الفنون التي تنتمي إلى علوم البلاغة الثّلاثة و خاصّة علم البديع الذي نتجّ عنه فروع عديدة (Ali Zayid, 1982).

الخلاصة

كان نشأة علم البلاغة مشهورة من عصر الجاهليّة و عُرف علم البلاغة منذ القديم بعلم الفصاحة والبيان وهما يدلّان على رفعةِ الأدب العربيّ. حتّي وصل العرب في الجاهليّة منزلة شريفة من البلاغة والبيان. ولا يريبه أحد أن فيه أسواق كبيرة و يتبادلون فيها الخطباء وهؤلاء الشّعراء. وكان أشهر أسواقه سوق عكاظ.

إختصارا من المباحث السابقة فخلّص الكاتب بأنّ تطور منهجيّة والدّراسات البلاغيّة في مرحلة الازدهار تشمل في أربعة مراحل وهي : (الأول) وضع عبد القاهر نظرية المعاني حيث أنّ نظرية النّظم فهي من أهمّ النّظريات في البلاغة العربية و (الثّاني) وضع عبد القاهر نظرية البيان وعلى نحو ما وضع عبد القاهر من قواعد المعاني فوضع أيضا نظرية البيان لأول مرّة في تاريخ العربية و (الثّالث) تطبيقات الزمخشري في الكشاف و (الرّابع) أضاف الزّمخشري في المعاني والبيان.

المراجع

Al-Ashthakhiri. (n.d.). al-Masalikwa al-mamalik ،Maktabah al-Musthafa al-iliktruniyyah.

Al-Jahidz, A. U. ’Amru I. U. (1998). al-Bayan wa at-Tibyan al-Juz al-Awwal. Maktabah al-Khanji.

Al-Jurjani, A. Q. ibn A. ar-R. (n.d.). Dalail al-‘Ijaz. Maktabah al-Khanji.

Al-Jurjani, A. Q. ibn A. ar-R. (2001). Asrar al-Balaghah fi Ilm al-Bayan. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Malik, S. M. A. (n.d.). al-Hawasyi an-Naqiyyah ‘ala kitab al-Balaghah li nukhbah al-afadhila al-azhariyyah. Dar al-Kutub al-‘ilmiyyah.

Al-Mun’im, M. A. (1983). al-Idhoh fi ulum al-Balaghah lil Khathib al-Qarwini. Dar al-Kitab al-Lubani.

Dhayf, D. S. (1965). al-Balaghah Tathawwurun wa Tarikhun. Dar Al-Ma’arif.

Husain, D. A. al-Q. (2001). al-Mukhtashar fi Tarikh al-Balaghah. Dar Ghorib.

Moleong, L. J. (2005). Metodologi Penelitian Kualitatif. PT. Remaja Rosdakarya.

Said, A. S. (n.d.). al-Balaghah al-Arabiyah. Dar an-Nahdhah ats-Tsaqafah.

Zayid, A. (1982). al-Balaghah al-Arabiyyah: Tarikhiha wa Mashodiriha wa Manahijiha. Maktabah asy-Syabab.